البيوت القديمة في محافظة ظفار

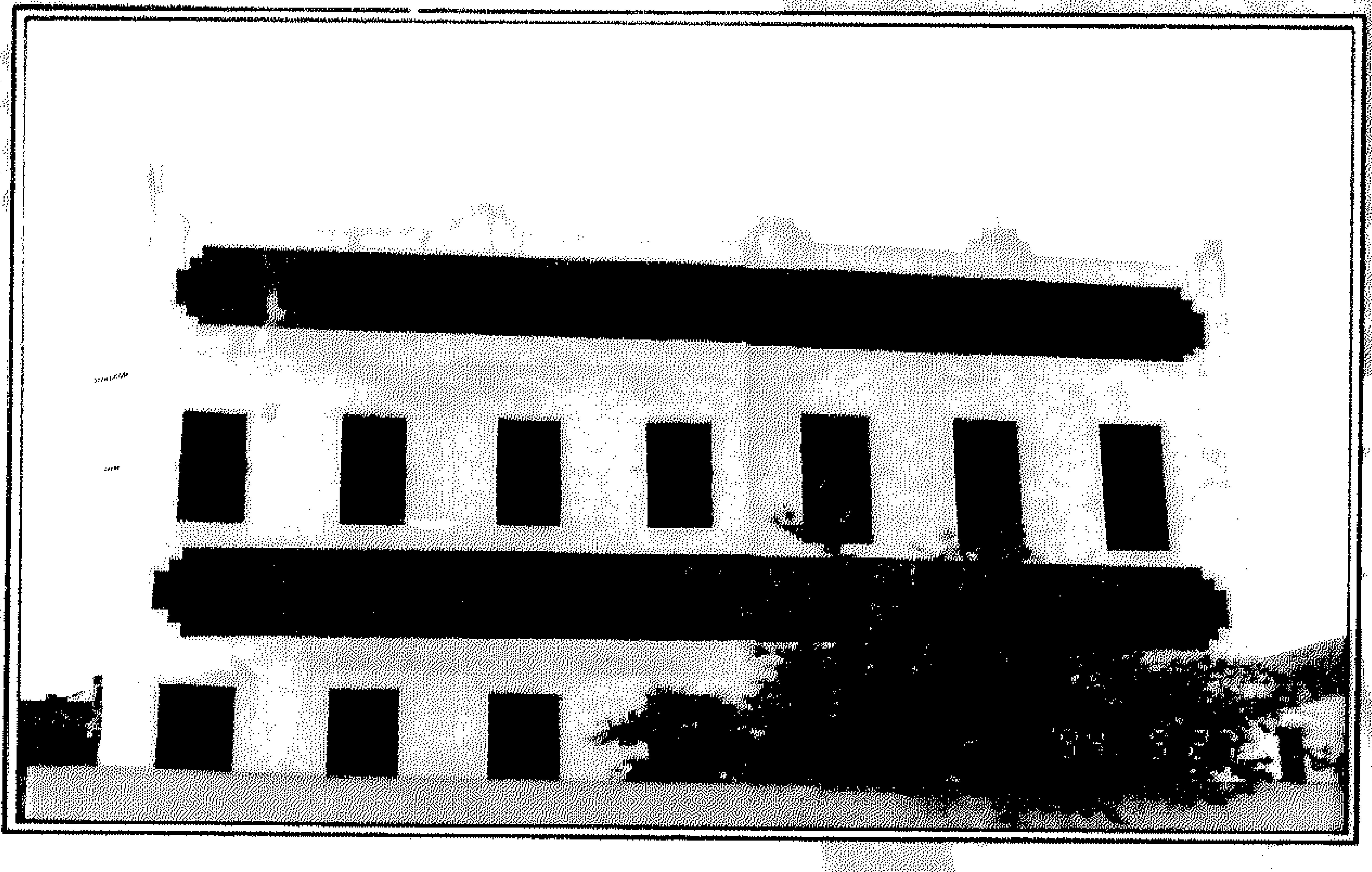

خالد بن أحمد العليان

البيوت القديمة في محافظة ظفار

خالد بن أحمد العليان

إهداء

إلى المقام السامي لحضرة صاحب الجلالة
السلطان قابوس بن سعيد حفظه الله تعالى وأبقاه
ثمرة من ثمار عناية جلالته السامية بتراثنا
العماني ولبنة من لبنات احتفائنا بعالم التراث

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد ﷺ ومن اتبع هديه إلى يوم الدين .

وبعد

منذ فترة طويلة وأنا أفكر في إعداد هذا الكتيب البسيط عن البيوت القديمة في محافظة ظفار، وجاءت المناسبة بتوجيهات حضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم ـ حفظه الله ـ بتخصيص عام ١٩٩٤م عاماً للتراث، وكانت فرصة طيبة لي فاغتنمتها، وبدأت في جمع المعلومات اللازمة لهذا الموضوع من مصادر شتى لإعداد هذا الكتيب.

وفى اعتقادى أن ما يحويه هذا الكتيب من معلومات عن البيوت القديمة في ظفار، سيعطي القارىء الكريم فكرة عن مدى التقدم الذي وصل إليه أجدادنا في مجال العمارة في تلك الفترة من الزمن.

وقد تركز الحديث في هذا الكتيب على البيت العماني القديم الذي يمثل الجانب الأهم والأكبر من المباني القديمة، التي تضم علاوة على المساكن نوعيات أخرى من العمارة الحربية، والتي تتمثل في القلاع والحصون والأسوار، والعمارة الدينية وتتمثل في المساجد وغيرها والتى وصفت عمارتها بكونها إسلامية.

ظهر الدين الإسلامي في شبه الجزيرة العربية، وكانت هذه الأرض الصحراوية الشاسعة وقت مولد النبي ﷺ عام ٥٧٠م تقع بجوار امبراطوريتين عريقتين هما الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية، وكان حال سكان الجزيرة العربية من الفرقة والتناحر والصراع الدائم فيما بينهم، وكانت الوثنية هي عقيدتهم التي يدينون بها بينما كانت هناك قلة تعتنق الديانات السماوية، فاليهود في المدينة وحولها، والمسيحيون في نجران، وعلى أطراف الإمبراطورية الرومانية ولم يكن بالجزيرة ما يمكن أن نطلق عليه فن العمارة ومايرتبط بها من صناعات وفنون أخرى، بل كانت البيوت في شبه الجزيرة على درجة كبيرة من البساطة في بعض الأماكن التي استقر بها الناس وعلى الأخص بمكة حيث البيت العتيق والمدينة، وإن كانت أكثر تطورا ووضوحا في اليمن وعلى الحدود السورية.

وقد تمكن سيدنا محمد ﷺ في فترة وجيزة من هجرته إلى المدينة عام ٦١٠م من السيادة على بلاد الحجاز بعد أن وحد أهلها ونشر الدين الإسلامي بينهم بروحه السمحة وقيمه السامية، وتكون مجتمع متماسك لأول مرة في شبه جزيرة العرب هو المجتمع الإسلامي، وبعد وفاة النبي ﷺ في ١٠/هـ/ ٦٣٢م تولى خلافة المسلمين أبو بكر الصديق صهره ورفيقه وهو أول الخلفاء الراشدين، وتم في عهده اخضاع شبه الجزيرة العربية كلها للإسلام وأصبحت عاصمة الدولة هي المدينة.

ساعد وقوع الجزيرة العربية بين شواطىء البحر الأحمر من ناحية، وشواطىء المحيط الهندى والخليج العربى من ناحية أخرى

على رواج التجارة بين أهل الجزيرة، واتصلت قوافلهم بالشرق والغرب، وكان لموقف سلطنة عُمان الفريد دوراً حيويا في هذا الاتصال، ونتيجة لذلك حدث شكل من التفاعل بين المسلمين في شتى المجالات وبين الحضارات في العالم وقتها. وكان نتيجة هذا التفاعل مصطلح جديد أطلق عليه «إسلامى» إصطبغت به كافة الأنشطة البشرية في العالم الإسلامي، وامتد تأثيره في نواح عديدة إلى ما وراء العالم الإسلامي نفسه، وكان العمران سواء في تخطيط المدن أو وحدتها أحد هذه المجالات التي أخرجت لنا في النهاية مايطلق عليه الباحثون المدينة الإسلامية والبيت الإسلامي.

وقد رأيت أنه من الأفضل التعرض ولو في عجاله للمدينة الإسلامية والبيت الإسلامي، ومن ثم الحديث بشكل عام عن البيت القديم في ظفار، مما سيعطي فكرة واضحة عن صبغة هذا البيت بالمصطلح «الإسلامي» ثم الحديث بشكل مفصل عن البيت القديم في ظفار من نواحيه المختلفة.

ونرجوا أن يكون جهدنا المتواضع جزءا من بحث أكبر وأشمل عن المباني القديمة في ظفار وسائر مناطق السلطنة في الوقت الحاضر الذي تقوم فيه الدولة الرشيدة ممثلة في وزارة التراث القومي والثقافة الموقرة بالحفاظ على هذا التراث العريق الذي صنعه أجدادنا سواء بالدراسة أو بترميم القلاع والحصون وتجديدها ليبق هذا التراث أثرا تعتز به الأجيال الحاضرة والقادمة بناء على التوجيهات السديدة والرعاية الدائمة، لمولانا حضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم ـ حفظه الله

والله ولى التوفيق

مدخل

من المؤكد أن العمارة أو مايسمى الفضاء المحصور أقدم وأهم الأنشطة التى مارسها الإنسان منذ وجوده على الأرض، وهي إنعكاس حقيقى لأساليب وحياة الناس الشخصية والعامة ومدى رقيهم وترتبط بعوامل إجتماعية وإقتصادية وبيئية، وهي عمل يرتبط بالعديد من الصناعات والمهن ويشترك في إبداعه العديد من الصناع والمهنيين وربما بعض الفنانين.

وقد تميزت العمارة الإسلامية بميزات خاصة ظهرت واضحة في المدن بالأقطار الإسلامية ومنها مدن محافظة ظفار وأهمها صلالة وطاقة ومرباط وسدح ورخيوت وضلكوت. وحسب مصادر الرواة من شيوخ المنطقة، فإن هذه المباني ترجع في بنائها إلى فترة تاريخية تمتد من مائة إلى ثلاثمائة سنه، أما قبل هذه الفترة فما بقي منها قليل من المباني المهدمة، والتي تحولت إلى أطلال متناثرة على طول الساحل بالمنطقة، والتي بني بعضها في العصر الإسلامي مثل مدينة البليد التاريخية وبني البعض قبل الإسلام مثل ميناء سمهرام الذي ذاعت شهرته في القرن الثانى قبل الميلاد.

كما قلنا فإن هناك ميزات خاصة للبيت الإسلامي وبالتالي للمدينة الإسلامية، وهي نفس الميزات التي انطبعت على البيت العمانى في ظفار وعلى هذا فسنقدم في عجالة سريعة بعض سمات العمارة الإسلامية (البيوت) والمدينة الإسلامية، مما سيعطي صورة أوضح لتميز البيت العماني في ظفار أو عمارة ظفار.

بعض سمات المدينة الإسلامية

تأثرت المدينة الإسلامية بطابع الإسلام وما يحمله من فقه وتشريع، ومطالعة واجهات المدينة الإسلامية يعكس الواقع الإجتماعي لأصحابه ويحدد لنا نوعية الطريق واتساعه ومظلات المباني ومشربياتها وما قد يخرج من جدرانها من ميازيب وما يوجد بها من عناصر معمارية أخرى، تحدد ارتباط إنشائها وشكلها وتوزيعها بقواعد فقهية محددة تجعلنا نقر بمواصفات المجتمع الذي يقطن أو يستغل هذه المباني.

كان للأحكام التي شرحتها مصادر التراث الإسلامي في عصوره المتعاقبة دورها في إستقرار الهيئة الإجتماعية للمدينة الإسلامية وإقرار المبادىء الإسلامية وتأصيلها بقيم المجتمع حتى أصبحت عرفا عاما، وأصبحت سلوكا عاما في تطبيقها أدى إلى شيوع الصفة الإسلامية على التكوينات المعمارية للمدينة من جهة وعلى سلوك أفراد المجتمع بالمدينة من جهة اخرى ومن الأحكام السابق ذكرها إنطلاقا من مبدأ : لا ضرر ولا ضرار وفي سبيل عدم الإضرار بالغير، من هذه الأحكام : الجدار المشترك حق المرور والأرتقاء والبيع وغير ذلك مما يتعلق بالشوارع الخاصة [١] تؤكد كتب التراث ما وصل إليه العلماء المسلمون من مستوى فكري متقدم في مجال العمران حيث تعرض لكل من المباديء العامة والجزئيات التطبيقية في نفس الوقت ومن مصادر الحديث عن العمارة وتخطيط المدن على سبيل المثال وليس الحصر [٢] .

---

(١) محمد عبد الستار عثمان : المدينة الإسلامية.
(٢) مصطفى الموسوي: العوامل التاريخية.

كتاب العلامة شهاب الدين أحمد بن محمد أبي الربيع: سلوك المالك في تدبير الممالك على التمام والكمال، وكتاب الأحكام السلطانية للماوردي، والسياسة لابن حزم، والشهب اللامعة في السياسة النافعة لابن رضوان، ومقدمة ابن خلدون، وكتاب السلك في طبائع الملك لابن الأزرق.

ومن الكتب التي اختصت بمسائل البنيان كتاب الاعلان بأحكام البنيان لابن الرامي وكتاب الجدار لعيسى بن موسى التطيلي.

المصادر السابقة وغيرها تكشف عن بعض جوانب الفكر الإسلامي التي ترسم السياسة والإطار الشامل للحكام المسلمين والقائمين على تخطيط المدن الإسلامية وتحدد القواعد والأحكام التي يجب أن تتبع في إنشاء المباني وعمارتها وبعض المصادر توجه العامه، لترقى بهم الى درجة الكمال في السلوك الإجتماعي، وتشرح الآداب العامة المتعلقة بجميع نواحي الحياة في ضوء الكتاب والسنة كما تعكس إستفادة الفكر الإسلامي من خبرات الأمم السابقة، فقد رسخ في الفكر الإسلامي منهج الرومان أن أصلح مواضع البناء أن يكون على تل وبحيث تدخله الشمس عند شروقها، وقد ذكر اليعقوبي أن الملوك الماضية لما أرادوا بناء المدن أخذوا آراء الحكماء في ذلك فاختاروا أفضل ناحية في البلاد وأفضل مكان في الناحية وأعلى منزل في المكان من السواحل والجبال ومهب الرياح لأنها تفيد صحة أبدان أهلها وحسن أمزجتها واحترزوا من الآجام والجزائر وأعماق الأرض فإنها تورث هما وكربا.

بعض سمات البيت الإسلامي

إنطلاقا من مبدأ لا ضرر ولا ضرار تأتي ظاهرة الخصوصية التي أثرت تأثيرا واضحا في الحياة الإجتماعية[1] في المدينة الإسلامية وبالتالي في تكويناتها المعمارية وعلى الأخص المساكن، فقد حددت التعاليم الإسلامية نظام حياة الأسرة بما يحفظ الحرمات والعرض فأخذ طابعها بمرور الزمن سلوكا حرص عليه السكان حرصا شديدا وأصدر الفقهاء أحكامهم التي تدعم الخصوصية، وطبقها القضاة ولم يتسامحوا في كشف حرمات المنازل بالنظر من أبوابها أو أثناء المرور في الطريق أو بجرحها من خلال الإطلاع على المنازل المجاورة من الأسطح والكوى التي تكشف بيوت الغير وما قد يترتب على ذلك من منع فتح النوافذ والمظلات بمقاييس تناسب غرض التهوية والإضاءة والاظلال، وهي حاجة تشتد بصفة خاصة في المدن الإسلامية التي تقع غالبا في المنطقة الحارة من العالم حيث تزداد الحاجة الى الهواء في فصل الصيف على الأخص، وتمثل الحل في الاقتصار على استخدام الطرق كشريان اتصال، واعتمد على الفناء الداخلي في بقية الأغراض الأخرى كفتح النوافذ والمطلات وتوفير درجة جيدة من الإضاءة والتهوية، وتجنب فتح المطلات على الشوارع أو الجيران وما ينجم عن ذلك من ضرر للبيوت المجاورة، ومن هنا ساد الفناء كعنصر رئيسي في تخطيط البيت الإسلامي، وأصبح يمثل محور النشاط الرئيسي في المساكن والمباني الإسلامية الأخرى، والفناء عنصر أساسي في تخطيط المنزل الشرقي منذ القدم، إذ ان تصميمه المعماري يناسب

---

(١)محمد عبدالستار عثمان: المدينة الإسلامية

مناخ المنطقة الحارة [1] حيث يتسبب في خفض درجة الحرارة نتيجة الظلال الناشئة من تقابل أضلاعه بمقدار درجتين مئويتين، واحداث تهوية جيدة على أساس أن الفناء بدرجة حرارته المنخفضة يكون منطقة ضغط مرتفع والخارج (الطريق) يكون منطقة تفريغ أي ضغط منخفض، وتبعا لذلك ينساب تيار هواء مستمر من الفناء للطريق، وعليه فقد استخدم الفناء في فتح النوافذ والمطلات المختلفة عليه تجنبا لصعوبة فتحها على الطرق الخارجية بدرجة كافية للتهوية والإضاءة والاطلال.

صممت الأبواب الخارجية المطلة على الطرق بحيث لا تكشف حرمات المنزل اذ تفتح على دهليز ملتوي فيصنع الالتواء مانعا للنظر داخل البيت من المارة أو من البيوت المقابلة أو الحوانيت، كما قلل عدد النوافذ في الطابق الأرضي وضاقت مقاساتها وخصصت حجرات هذا الطابق غالبا للتخزين لملاءمته لهذا الغرض، ولتعل الطوابق الرئيسية المستخدمة في المعيشة عن مستوى الطريق لحمايتها من فضول المارة ولتوفير نسبة أكبر من الضوء والهواء و الهدوء [2].

في حالة امكانية فتح نوافذ ومطلات على الشوارع سواء كان في جدران أو (براوين) كان الحرص شديدا على ألا تكشف داخل البيت لذلك استخدمت السواتر الخشبية المصنوعة من خشب الخرط على هيئة حواجز أو مشربيات تمكن مَنْ خلفها من رؤية الطريق وليس العكس.

---

(١) أحمد محمد عبدالله : المناخ والعمارة.
(٢) محمد عبد الستار عثمان : المدينة الإسلامية.

صممت قاعات الاستقبال في المنازل تصميما خاصا بحيث وضعت غالبا في الطابق الرئيسي بعيـدا عن غرف المعيشة والنوم التي توضع في الطـوابق العليـا، وتميزت منـازل اليمن بأن أعلى طـابق استخـدم للضيـوف والاجتماعـات والراحـة بحيث تجعل استقـلاليـة لغـرف الاستقبال عن بقيـة الوحدات الأخرى بـالمنزل والاشراف على المدينة بمناظره الطبيعية في نفس الوقـت، فانسحبت عليه التسمية: المنظر أو المنظرة أو المفرج وأحيانا الغرفة الكبيرة.

تبلور هذا الاتجاه في تخطيط البيت حتى أصبح في العصر العثماني يشمل على قسم معين مخصـص للـرجـال واستقبـالاتهم ويضم القاعات والمجالس المؤثثة وهـو ما أطلق عليه (السلاملك) وقسم آخر يشتمل على غـرف المعيشـة وقـاعـات النـوم ومـرافقـه أطلق عليـه (الحرملك) ـ نسبـة الى الحريم ـ ووزعت غرفه بين أجنحـة متكاملة كـوحـدات مستقلة، ووزعت قـاعـات النـوم تـوزيعا خـاصـا يكفل الخصوصية بين أفراد الأسرة الواحده، وامتد ذلك الى تحديد مواضع المراحيض والحمامات والمطابخ.

سمات عامة للبيت القديم في ظفار

بعـد العجالـة السـابقة عن المدينـة الإسـلامية والبيت الإسـلامي سيكتشف الناظـر لبيوت ظفـار تلك السمات الإسلاميـة منذ الـوهلة الأولى، وذلك النسيج المتماسك الـذي تتداخل فيـه العقيدة والسلـوك والذي بقيت العمارة شاهدة عليه حتى الآن.

اختير مـوقع المدن بمحـــافظـة ظفـار في أفضل الأمـــاكن بطـول السـاحل، وروعي قربها من مصـــادر المياه الشريـان الحيوي لحيـاة الناس، وقسمت شوارعها بحيث ينفذ الهواء الى أبعد مكان عن البحر بالمدينـة. كما روعي فيها طبيعـة الساحل الـواقع عليه المدينـة وماء البحر مـن حيث المعوقـات التي قد تـواجهه من الصخـور والتيارات البحرية غير الملاءمة.

بالنسـبة للبيـت في ظفار فإنه يتكـون من البناء نفسـه تحيط به مساحة خالية هي الفناء محاطة بسور، وللفناء باب خارجي، والبناء (البيت)، مكون من ثـلاثة طوابـق وربما يقل عن ذلك، واستغل البنّاء كل العـوامل البيئيـة سـواء اكانـت جغرافيـة المدن أو مـوقع البنـاء وتكوينه.

فالموقع اتخذ بحيث تكون واجهـة البيت في اتجاه الجنوب معتمدة على الرياح الجنوبية (النسيم) وبها عدد كبير من النوافذ التي تسمح بدخول الهواء والضوء للبيت.

تضمن البيت (الشمسيـه) التي تصنـع مسقطـا للهـواء الى داخل البيت فتحـدث تيـارا من الهواء عـلاوة على اختـلاف الضغط لفـرق

درجـات الحرارة في الشمسية وخـارجهـا وتيار الهواء في الشمسيـة يحرك الهواء الداخل من نوافذ البيت.

وبهذا تمكن البنّـاء والمصمم المعماري العماني في ظفـار من عمل تهوية جيدة للبيت وتقليل درجة الحرارة من الداخل.

كما أن استخدام الحجر في البنـاء واستخدام النخيل واجزاءه مع الطين يصنع عازلا للحرارة، وبهذا كان البناء في ظفار واعيا لمشكلات المكان والمناخ والبيئه، وتعامل معها بحرفية ومهارة عالية، واستخدم الخامات الموجودة في البيئة الطبيعية افضل استخدام حتى في الدهان، فقد افـرد مساحات كبيرة للدهـان باللون الابيض لواجهـات المنازل لتقليل امتصـاص حـرارة الشمس ولم ينس أن يضع لمسـة جماليـة رقيقـة إذ صمم دهـان الـواجهـه بحيث يتبـادل اللـون الابيض مع مسـاحات ضيقـة ذات لون داكن ممـا اضاف لمسـة جمالية مميـزة للشكل الخارجي للبيت.

اهتم العرب المسلمون بالفنون التشكيلية بعد انتقال مركز الخلافة الإسلاميـة الى خارج شبه الجزيرة العـربية في عهد خلفـاء بني امية ونسبت الاسـاليب الاسـلاميـة في الفنـون الى مـدارس فنيـة نسبـة لعصور سياسية مختلفة [1].

إزدهرت الصناعات الخشبية على اختلاف أساليبها طوال العصـور الإسلاميـة وبرع الفنان المسلم في تهذيب خـرط الخشب الذى يشمل الكراسى، الدكك، والستر الخشبية والمشربيات وترك نماذج رائعة من

---

(١) نعمت اسماعيل علام : فنون الشرق الاوسط ج ٢.

الحفر على الخشب بأشكال مختلفة ذات زخارف نباتية مصدرها فروع النباتات وأوراقها وزهورها في عمل زخارف هندسية[١].

إستخدم الفنان العماني الأخشاب المتوفرة بالبيئة المحلية، ويجدر القول بأن نوعية هذه الأخشاب لم تمكنه من اظهار مهارته التى وضحت في اعماله، فلا نجد الحشوات الخشبية المتميزة فنيا ولا الأشغال المحفورة حفرا دقيقا أو المطعمة بالأبنوس أو الأصداف أو سن الفيل، وليس هذا عن تقصير من الفنان العماني، لكنها قلة الخامات التى توافرت لديه في بيئته، ورغم ذلك، ففي السطور القليلة الآتية سنحاول أن نلقى الضوء على ما أبدعه الفنان من أشغال خشبية التى تمثل وتميز الفن الإسلامي العربي أو ما أطلق عليه «أرابيسك».

بدءا من السدة يطالعنا الباب الخشبي الضخم الذى تم تقويته وتزيينه في نفس الوقت بعوارض خشبية سميكة متقاطعة مع أخرى طويلة بحيث تصنع تشكيلا هندسيا (شكل رقم ٣) أضاف له الفنان في أعلى باب الدخول الصغير «الفرخ» بتشكيل محور يماثله بالصف الآخر من الباب شكلا يشبه الباب الصغير وبنفس الرسم، وزينت ألواح الباب بحفر دقيق مستعرض رفيع الخطوط تقطعها الخطوط الرأسية للألواح الخشبية، ولم ينس الفنان القوشمه فزخرفها بحفر هندسى على شكل خطوط متقاطعة بزوايا حادة.

وكلما تمكن الصانع العماني من إضافة لمسة جمال في عمله، لم

---

(١) محمد صدقى الجباخنجي : الموجز في تاريخ الفن.

يتوان عن اضافتها (شكل رقم ٦) إذ عمـل تقوية للباب بحيث تثبت ألواحه الخشبية فصنع هذه التقويـة بعوارض طوليه وعرضيه مثبته بمسامير ذات رؤوس كبيرة نصف كروية. ظهر في النوافذ (الخلاف) دقة الفنان بـالبيوت القديمة في ظفـار وابداعه، ولدينـا خمسة نماذج من الأشكال الخشبيـة للنوافذ بـالبيوت القديمـة في ظفار، ورغم أنها ذات أسلـوب واحد في كـونها مستطيلـة ومقسمـة الى ثلاثـة اقســام مستعـرضـه متسـاويـة والجزء السفلي منهـا مصنـوع من الخشب المعشق الـذي يحفظ حـرمـة البيـت، فإن لكل منهـا شكـلا متميـزا. والنوافـذ مقسمة طـوليا الى قسمين فيما عـدا (شكل ١٠/١) وشكل (٣/١٠).

في (شكل ١٠/١) الجزء السفلى مقسم إلى ثـلاثـة أجزاء طـوليـة الأوسط بخمس مفـرغ دقيق الصنـع والجزئين يمينـه ويســاره من الخشب المعشق المتقـاطع بـزوايا حـادة. على جـانبي إطـار النافـذة مربعـان خاليان لـدخول أكبر كميـة من الهواء والضوء وعلى الضلع العلوى لكل منهما حشـوة خشبية مقعرة نصف مستـديرة ومحورة في نفس الوقت، والجزء الأوسط الطولي من النـافذة مقسم الى اربعة أقسام سبـق ذكر الأسفل منها، وهـو عبارة عن شكل نجمـي الحفر يعلـوه شكل نجمي اكبر في تشكيلـه يحتـل مـربعـا ذا اطـار خشبي واضح يعلـوه مربع مفـرغ اعلاه حشـوة خشبية نصف مستـديرة مقعـرة ومحورة وفي أعلى الجزء الأوسط مـربع يملـؤه شكل نجمي يماثل الجزء الثاني من أسفل، وهذه النافذة تعتبر نموذجا فريدا لدقة ومهارة النجار العماني.

(شكل ١٠/٣) الجزء السفلي من النافذة من الخشب المعشق المتقاطع بزوايا حادة وعلى الجانبين صفين من القتمات المفرغة أعلاها حشوات خشبية نصف مستديرة محورة وفي المنتصف جزئين متتالين بهما حفر بسيط.

(شكل ١٠/٤) النافذة مقسمة إلى ثلاثة أجزاء أفقية وجزئين طوليين، الجزء السفلي من الخشب المعشق واسع الفتحات يعلوه صفين من الفتحات الفارغة تعلوها حشوات خشبية نصف مستديرة مقعرة ومحوره.

(شكل ١٠/٢)، (شكل ١٠/٥) يتكونان من ثلاثة اقسام أفقية مستعرضه وقسمين طوليين، الجزء السفلي منهما مكون من خشب معشق واسع الفتحات بزوايا حادة في (شكل ١٠/٢) وزوايا عمودية في (شكل ١٠/٥) ولا يختلف الجزءان العلويان في الشكلين المذكورين عما سبق وصفه ولكن (شكل ١٠/٢) يختلف في أن الجزء الأعلى مكون من صفوف من قطع خشبية رأسية تفصلها مسافات متساوية. ويشترك الشكلان معاً في أنه يعلوهما في البناء نفسه شكل نصف بيضاوي مزدوج يعطي إحساسا بتصميم القبله في الجوامع مما يعطينا إحساسا قويا بالصفة الإسلامية.

تقسيم البيت الظفاري ومرافقه الخارجية

جميع المبانى القديمة بمحافظة ظفار قد أنشئت بدون استثناء في مواجهة البحر (الجنوب) حيث يهب الهواء البحرى الذى يسمى (النسيم) في أغلب أوقات السنة ماعدا فصل الشتاء حيث يكون إتجاه الهواء من الشمال، ولهذا السبب نجد أن جميع المجالس والصالات والغرف في مقدمة المبنى في اتجاه البحر أما الجهة الشمالية من المبنى فهى مخصصة للخدمات كالمطابخ ودورات المياه، وكل مجموعة من هذه المباني تشكل حيا يتوسطه مسجد للعبادة وساحة كبيرة لإقامة الأفراح في المناسبات المختلفة.

(إنظر شكل رقم ٢).

ولو أخذنا نموذج من المباني القديمة في محافظة ظفار يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أدوار كالأتى :

أولاً : الدهاليز :

وهو الدور الأرضي ويستخدم في أغراض التخزين بأنواعه.

ثانيا : المحايل :

وهو الدور الأول ويستخدم للسكن.

ثالثا : القصور :

وهو الدور الثاني ويستخدم للسكن ايضا.

وفي هذا المقام أريد أن أذكر ملاحظة في أنه ليس بمقدور كل الناس اقامة مبانى من النمط المذكور أعلاه، فمنهم من يقتصر على دور واحد فقط والبعض على دورين .. الخ . أما المقتدرون ماديا فإنهم يبنون حسب النموذج المذكور أعلاه.

١) **الدرب :**

وهى المساحة الواقعة امام المبنى، وفي الغالب تكون مسورة وتحتوى على بئر للماء في احد أركانه ، وفي الركن الاخر المقابل يعمل حظيرة للحيوانات تقفل بواسطة باب يسمى (الشجب) وهو مصنوع من الخشب المحلى.

٢) **السده :** (إنظرشكل رقم ٣) :

وهو الباب الرئيسي الخارجي للدرب، ويتكون من شقين (ورقتين) شق ثابت أم الشق الآخر فهو متحرك، والشق المتحرك يوجد في وسطه باب صغير يسمى (الفرخ) يسمح بدخول إنسان واحد فقط، ويتم فتحه بواسطة حبل يكون طرفه في الدور الأول (المحايل) وعند قدوم الزائر يتم قرع الباب فيشد الحبل بواسطة صاحب المنزل وتتكون من :

أ) **القوشمة :** (إنظر شكل رقم ٤) :

وهو عبارة عن القفل الذى يفتح ويغلق الباب (السده).

ب) **السارقة :**

وهو المفتاح الخاص بالقوشمة.

جـ) **المغلاق :**

وهو قطعة من خشب طويلة توضع بشكل مستعرض لغلق شقى الباب (السده).

د) **السكرة :** (إنظر شكل رقم ٥) :

وهي عبارة عن قطعة من الخشب أحد اطرافها مدبدب تغلق شقي (ورقتي) الباب من الأعلى ومن الأسفل.

هـ) الزافر : (إنظر شكل رقم ٦) :

وهو الإطار الاعلى من الباب (السده) .

و) المردم : (شكل رقم ٦) :

وهو الإطار الاسفل من الباب (السده)

٣) البوني : (شكل رقم ٧) :

باب صغير في الدرب .

٤) التباشير : (شكل رقم ٨) :

توجد على الجزء الأعلى من السور المحيط بسطح البيت وهي تشبه شرفيات المساجد على شكل مدرجات صغيرة وتعتبر من السمات المميزة للبيت العماني القديم في ظفار والتى تتميز بجمال نفسي كبير حيث ترتبط بمدلول اجتماعي احتفالي إذ أن هذه الدرجات الصغيرة يوضع عليها اللبان ويشعل فتملأ المكان رائحته الطيبة وذلك في حالة قدوم المسافرين من الخارج فرحا بعودتهم سالمين واحتفاء بهم وكذلك في المناسبات والافراح.

التباشير تكشف عن ميزة اجتماعية ونفسية لاهل ظفار أنفسهم لطبيعة استخدامها إذ توضح ميلهم واقبالهم على الحياة والترابط والتآلف والود الذى يربط بين الناس في ظفار وترحيبهم بالغرباء وكرمهم وميلهم الى ماهو طيب في الحياة.

٥) المراعيض :

الفتحات في سطح المبنى وتستخدم لتسريب مياه الأمطار.

٦) التشريفه :

أحجار بـارزة من أحد جدران المبنى الرئيسي بغـرض ربطها بأى بناء جديد يراد إضافته للمبنى القديم.

٧) الخـلة :

خـزان الصرف الصحى ويقع في أحـد أركان المبنى جهـة الشمال حتى لا تـؤذى رائحتـه السكان إذ أن الـريـاح تأتى من الجنـوب في إتجاه الشمال معظم أوقات السنة.

عدد الأدوار وتقسيماتها واستخداماتها

أولا ـ الدهاليز :

وهو الدور الأرضي من المبنى وبه المدخل الرئيسي (السدة الداخلية) وهى بنفس المواصفات للباب الرئيسي الخارجي للدرب (السدة الخارجية). ويتم استخدام الدور الأرضي (الدهاليز) للتخزين بأنواعه ، أضف الى ذلك إيواء الحيوانات في فترة الليل لحمايتها من الأمطار والرياح، وينقسم الدور الأرضي كالتالي :

١) الضيقة :

وهي المساحة الكائنة أما الباب الرئيسي (السدة الداخلية) من الداخل ومن خلالها يتوجه الشخص الى الدور الأول (المحايل).

٢) الرقاقيد :

وهو الدرج الرئيسي للمبنى .

٣) الرويجعة :

وهى المساحة الكائنة بعد الدرج (لوبى).

٤) الفتحة أو الفتح :

وهى عبارة عن مخازن كبيرة في الدور الأرضى (الدهاليز) وفي العادة هذه المخازن التى تتميز بمساحات كبيرة لا تقفل بأي أبواب وتستخدم لإيواء الحيوانات والتخزين بصورة عامة وتجميع مخلفات المنزل بها لحين التخلص منها.

٥) **الســـــراب :**

وهو أحد أنواع الفتح ولكنه مستطيل الشكل ويستخدم خصيصا في تخزين العيد (السردين) بعد تجفيفه لتعطى للأبقار كعلف.

٦) **المـــــودى :**

وهو عبـارة عن مخزن يتم تقسيمه مـن الداخل إلى أحـواض عده وذلك لحفظ الحبوب كالذرة، القمح .... ألخ.

ثانيا ـ المحايل :

وهو الدور الأول من المبنى ، ويستخدم للسكن وفي العادة يتكون من صالة مربعة كبيرة وعلى جانبيها محلتين (غرفتين) ومطولين يقع واحد في الركن الجنوبى الشرقي من المبنى والأخر في الركن الجنوبي الغربي، وفي العـادة تصمم الغرف والصالات بحيث تكون في مقـدمة المبنى لـــلإستفـــادة من الهواء الآتى من الجنـــوب والـــذى يسمى (النسيم).

كما يتضمن الدور (المحايل). عـدد من الغرف الصغيرة وعدد من المرواح (إستراحـة للجلـوس) أمـا الجهـــة الشماليـة من المبنى فهى مخصصـــة للخدمـات كـالمطابـخ ودورات المياه كما ذكـرنـا سابقـا، ويمكننا تقسيم الدور الأول (المحايل) إلى الآتي :

١) **المربعــــه :**

صالة مـربعة الشكل وهى الأكبر مساحة في الـدور يحمل سقفها جسر يسمى (قوسم) مصنـوع من الخشب المحلى من أشجار النخيل (النارجيل ـ جوز الهند) أو من الأشجار المستجلبة من منطقة الجبل، ويـرتكز هـذا الجسر على عمـود يسمى (سـهم) والمربعة مخصصـة للإستقبالات.

٢) المحـــــلة :

ولها نفس معنى الغرفة أو الحجرة .

٣) المطـــــول :

وهــو عبارة عن غــرفــة مستطيلة الشكــل وهى أكبر مساحــة من المحلة، وفي العادة يــوجد مطولين في الدور الأول (المحــايل) أحدها في الركن الجنوبى الشرقى والآخر في الركن الجنوبي الغربى من المبنى.

٤) المـــــروح :

وهو عبارة عن مساحة مقفلة أمام الغــرف تســتخدم كاستــراحة.

٥) المحـــضرة :

وهى المساحة الواقعة أمام المراوح وفى الغالب تكون غير مسقوفة من الأعلى.

٦) الخســـــة :

وهى عبــارة عن فتحــة موجــودة في المحضرة أو فى أى مكــان من المبنى نتيجة تهدم جزء من السقف.

٧) العـــــكرة :

وهي فتحة في اقصـــى المحضره يتم من خلالها القــاء المخلفات إلى الدور الأرضــى «الدهالين».

٨) الناصغـــة :

يطلق على نصف المبنى الشرقى بالنــاصغة الشرقية ونصف المبنى الغربى بالناصغة الغربية.

٩) الخزانة أو الخزينة :

وهى عبارة عن مخزن صغير ملحق بالغرف.

١٠) **الخرستين :**

هــو عبــارة عن دولاب محفــور داخـل الحائط لحفظ الملابس وخلافه.

١١) **المصنــع :**

وهو عبـارة عن فتحة كـذلك محفورة داخل الجدار (الحائط) على شكل عكف مباشرة فوق النـوافذ (الخلاف) ويستخدم لوضـع أدوات الزينة المصنوعة من الخزف المحلى (أنظر شكل رقم ٩).

١٢) **الخــلاف :**

يطلق اسم الخلاف على النوافذ وهــي مصنوعة من الخشب المحلى (صفـوت، خفوت، ميطـان، نخيل النـارجيل) وقـد أبدع في الحقيقـة الفنانون العمانيون في هذا المجـال حيث ترى دقة النقش والحفر على هذه الأخشاب (أنظر اشكال رقم ١٠).

١٣) **التـــلة :**

تعنى الجالى الخارجي للنوافذ (الخلاف) وتصنع من عيدان قصب الذرة أو غيره ويتم ربطها بواسطة الحبال.

١٤) **العتبـــة :**

هو الدرج الصغير المكون من درجة أودرجتين أمام أبواب الغرف، وله معنى آخر يطلق على الجسورة التى فوق النوافذ (الخلاف).

ثالثا ـ القصور :

وهــو الـدور الثـاني من المبنى ويستخـدم للسكن ولـه نفس مـواصفـات الـدور الاول (المحـايل) مع فـارق بسيط أنـه في بعض الأوقات يتم بناء نصف الدور الأمامى من الجهة الجنوبية من المبنى فقط، والنصف الشمالى يترك دون بنــاء، وتستغل هـذه المســاحـة الخالية من البناء في السمر خلال الليالى القمرية.

المواد المستخدمة في بناء البيت الظفاري

١) يستخدم حجر القص في البناء ويستخرج بواسطة الإنسان يدويا والذى يقوم بقطعه من الأماكن المعروفة في المنطقة في أشكال مستطيلة ويعتبر عازلا للحرارة. أما في الوقت الحاضر يستخدم لتغطية واجهات المباني بعد ان إستخدم الإنسان الطابوق المصنوع من الأسمنت في البناء.

٢) يستخدم الطين المحلى (يبع أو خطرى) في عملية البناء.

٣) المحض وهو (البلاستر) وذلك بخلط الطين المحلى مع رمل البحر (البطاح) بنسبة (٢ ـ ١).

٤) يتم صبية سقف المبنى بوضع القبال (إنظر شكل رقم ١١) التى تستخرج من الأشجار المحلية (صفوت، خفوت، خير أو من أشجار نخيل جوز الهند) وذلك بوضعها فوق حائط المبنى (جدار) بمسافات متقاربة (٤٠ سم) وبعدها يتم تغطيتها بواسطة الركراك وهى عيدان تقطع من الأشجار المحلية (إنظر شكل رقم ١١) ثم يوضع سعف أشجار النارجيل (الليف) ويرش بالماء ثم تعمل خلطة للصبية تسمى (البغل) وتتكون من الطين المحلى إضافة الى مخلفات سنابل الذرة أو أى مزروع آخر ويسمى (غشار) ومن ثم يصب السقف بهذه الخلطة.

٥) يتم الطلاء الـداخلى والخارجي للمبنى بواسطة النـورة البيضاء التى تصنع محليا وذلك بحـرق الأحجار الصماء الكبيرة لفترات طويلـة حتى تتحول الى بـودرة بيضاء ثم تصفى مـن الشوائب وتخلط بالماء لعمل الطلاء.

٦) تستخدم جذورع الأشجار المحليـة بعد تهذيبها في ربط الحوائط بعضها ببعض وتقويتها وتسمى (البسط).

٧) يستخـدم الجبس المحلى في تزيين حـوائط الغرف والمجـالس من الداخـل ومن أشهر التشكيلات هـى (الكوانز) التى تعمـل فوق الأبواب والنوافذ (الخلاف).

خاتمـــة

وضح لنـا خلال الـدراسـة الآنفة كيف أن البيت العماني القـديم يعتبر مثـالاً حيا للعمارة الإسـلامية في شبـه الجزيرة العـربية ممـا يوضح مدى عمق إيمان المجتمع الإسـلامي في محافظة ظفار ووعيه بقيم الإسـلام وتعـاليمـه حتى أصبح سلـوك هـذا المجتمع تـرجمة حقيقية لمدى إستيعابه لما ورد بالكتاب والسنه.

وأكـدت عمارة البيت العماني القديم في محافظـة ظفار وعنـاصره وتوزيع الخدمـات به مدى مهـارة البناء والصـانع العماني وإدراكه لكل مفردات الواقع الطبيعية والإجتماعية فكان البيت العماني الملائم لإحتيـاج الأسرة والمحافظـة على خصوصيتهـا بإستخدام المتـاح من الخامات وبشكل تـوافرت فيه سبل الراحة والعنـاصر الجمالية التى تعتبر دليلا على مدى ما رقى إليه الصـانع العمانى حتى أفرز لنا فنا وجماليات سـواء في شكل البناء أو زخرفتـه أو ما حـواه من أشغال خشبية هي جزء حقيقى من طرازه الإسلامي الأصيل والواضح من النظرة الأولى.

يـرجع تاريخ بنـاء بعض البيـوت القديمـة في محافظة ظفـار إلى ثلاثمائة سنـه وتعتبر حقيقة ضمن الآثار التى يجب المحافظـة عليها والتأكيد على حمايتها من الهدم وإحـلالها بمساكن حديثة لضرورات فرديـة، فهذه البيوت بمثـابة كنـز أثرى لو أننـا أهملناه فإن مصيره

الإندثار وهذا ما يتنـافى مع الإتجاه الأصيل الذى وضع لبناته ورعى مسيرته، مولانـا حضرة صاحب الجلالة السلطان قـابوس بن سعيد المعظم ــ حفظه الله ــ والخاص بالحفـاظ على التراث العماني ضمن النهضــة العمانيـــة المعـاصرة التى تستـــوعب حضـــارة الأســلاف وتتواصل معهـا وتتفاعل مع مفردات الحضارة الإنسـانية في العصر الحالى.

إن حماية الآثار وتـرميمها ليس مسئوليـة الأفراد في المقام الأول ولكنه مسئوليـة الدولة وأعتقد بضرورة المحـافظة على أحد أو بعض البيـوت القديمـة في ظفار بما تحوى من عنـاصر أخرى مثل الأثـاث والادوات وحتى الملابس إن وجدت وعـرضها كأثر يستحق العنـاية والإهتمام لتشاهـده الأجيال الحاضرة، وفي المستقبل هـو من الأهمية التى تدعو للإسراع بإتخاذ الإجراءات الملائمة في هذا السبيل.

نرجو في النهاية أن نكون قـد قدمنا جهدا يمكن أن يكون ذا فائدة في دراسة تراث بلدنا الحبيب والتعرف عليه وحلقة من سلسلة تغطى تراث بلـدنا العـريق ، ويتضح حجم هـذا الجهد المتواضـع في ضوء محدودية الدراسات السابقة حول هذا الموضوع.

وأشير في الختـام إلى أن السمات المعمارية للبيت الظفـاري كـانت موحدة في بيوت مختلف الطبقات الإجتماعية مع إختلافات وإضـافات طفيفة في بيـوت الموسرين إضـافـة الى تماثلها الكبير في مختلـف مدن المحـافظة وذلك نظـرا لوحـدة المنطلقـات الفكريـة وتطابق العـادات

والتقاليـد والأعراف الإجتماعية السائدة. كما لا يفـوتنى الاشارة الى أن البيـوت الحديثـة في محافظة ظفـار قـد إستـوعبت روح القـديم وخصوصيـاته وأفـرزت طرزاً معمارية جميلـة تزاوج مـابين القديم والحديث وتستجيب بـدرجـة كبيرة لمتطلبـات المنـاخ والتقـاليـد الإجتماعية، والأمـل معقود على قـانون عماني للبنـاء يصدر مـراعيا لهذا التراث المعماري الجميل، ومؤهلا له ومؤكدا عليه.

وفي الختام لا يبـق لي الا أن اشكر كلا من وزارة التراث القـومي والثقافـة ووزارة الاعلام الموقـرتين على التسهيلات التى حظيت بها وكذلك الى الاشخاص الذين أفادونى بـالكثير من المعلومات حول هذا الموضوع.

المراجــع

١ ــ **مصطفى الموسـوى** : العوامـل التاريخية لنشــأة وتطور المدن العربية الإسلامية ـ دار الرشيد للنشر ـ العراق.

٢ ـ **محمـد مصطـفى حمـاد** : تخطيط المدن وتـاريخه ـ مصر ـ ١٩٦٥.

٣ ـ **عرفان سامي** : نظريات العمارة ـ دار المعارف ـ مصر.

٤ ـ **أحمد محمد عبدالله** : المناخ والعمارة ـ رسالة ماجستير مقدمة لكلية الفنون الجميلة ـ الإسكندرية ـ مصر.

٥ ـ **محمد عبد الستار عثمان** : المديـنة الإسلامية ـ عالـم المعرفة ـ الكويت.

٦ ـ **نعمـت إسمـاعيل علام** : فنـون الشرق الأوسـط في العصـور الإسلامية ـ دار المعارف ـ مصر.

٧ ـ **محمـد صدقي الجباخنجـي** : الموجـز في تاريـخ الفـن ـ دار المعارف ـ مصر.

ملحق الصور

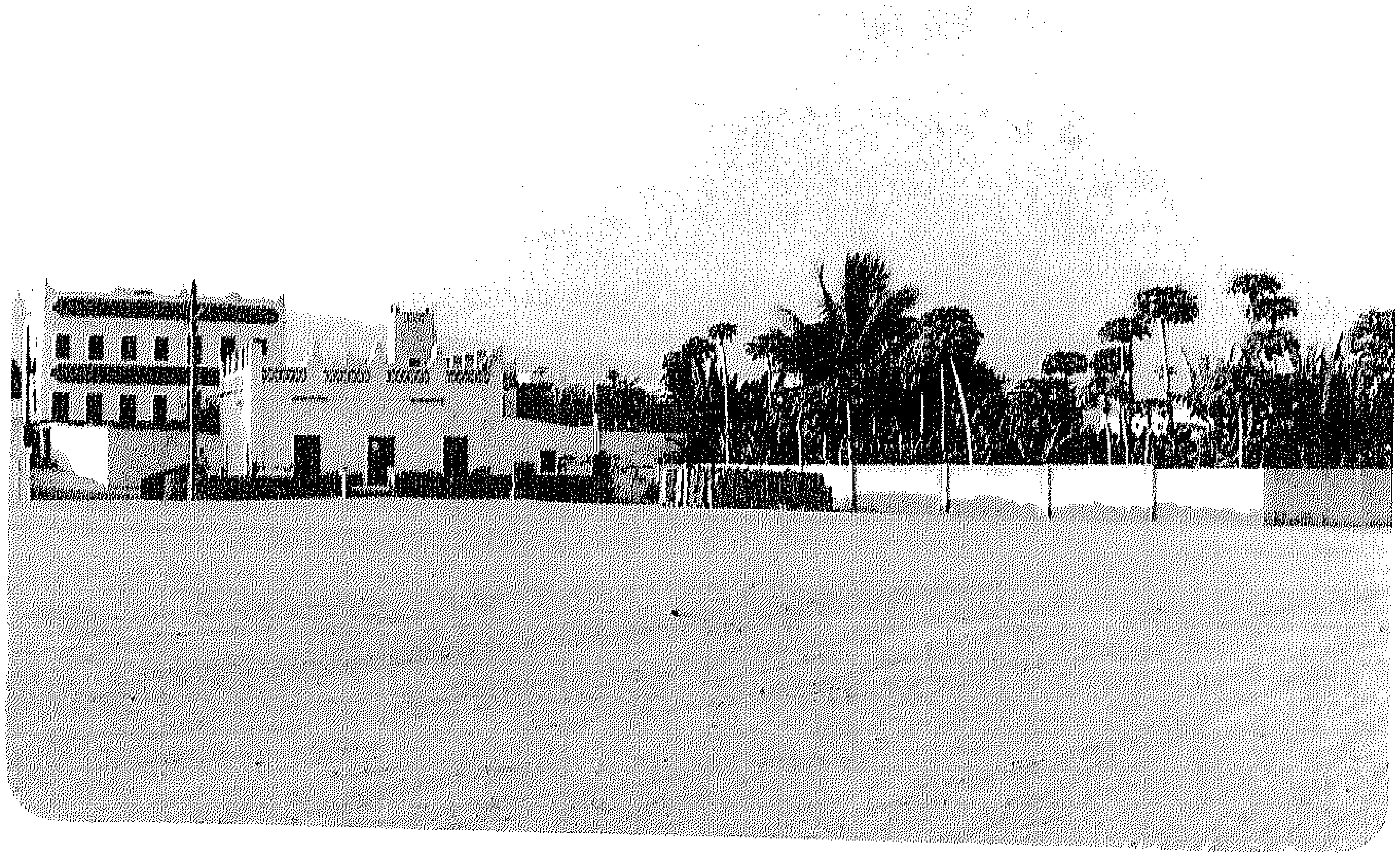

شكل رقم (٢)

شكل رقم (٣)

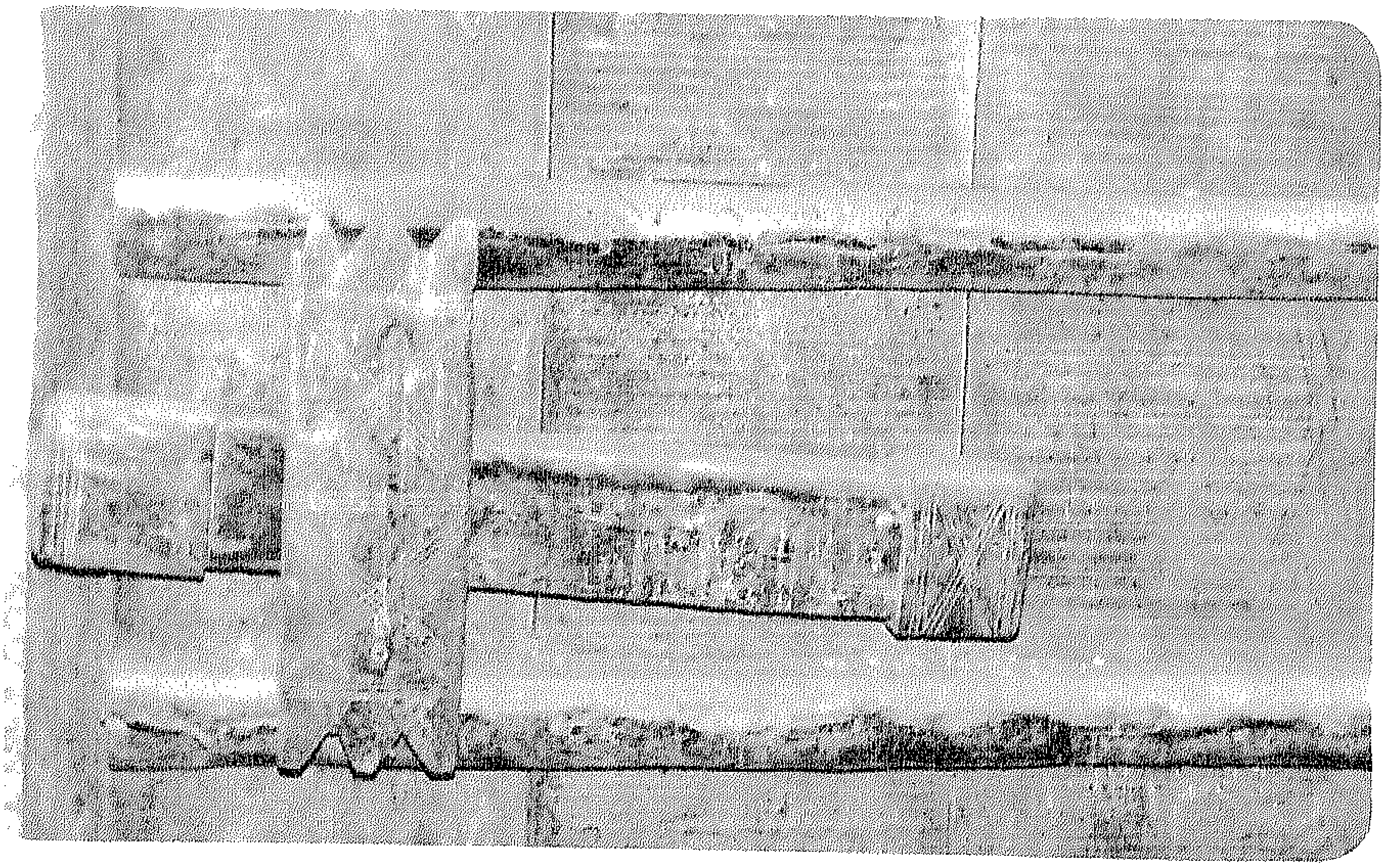

شــكل رقم (٤)

شـكل رقم (٥)

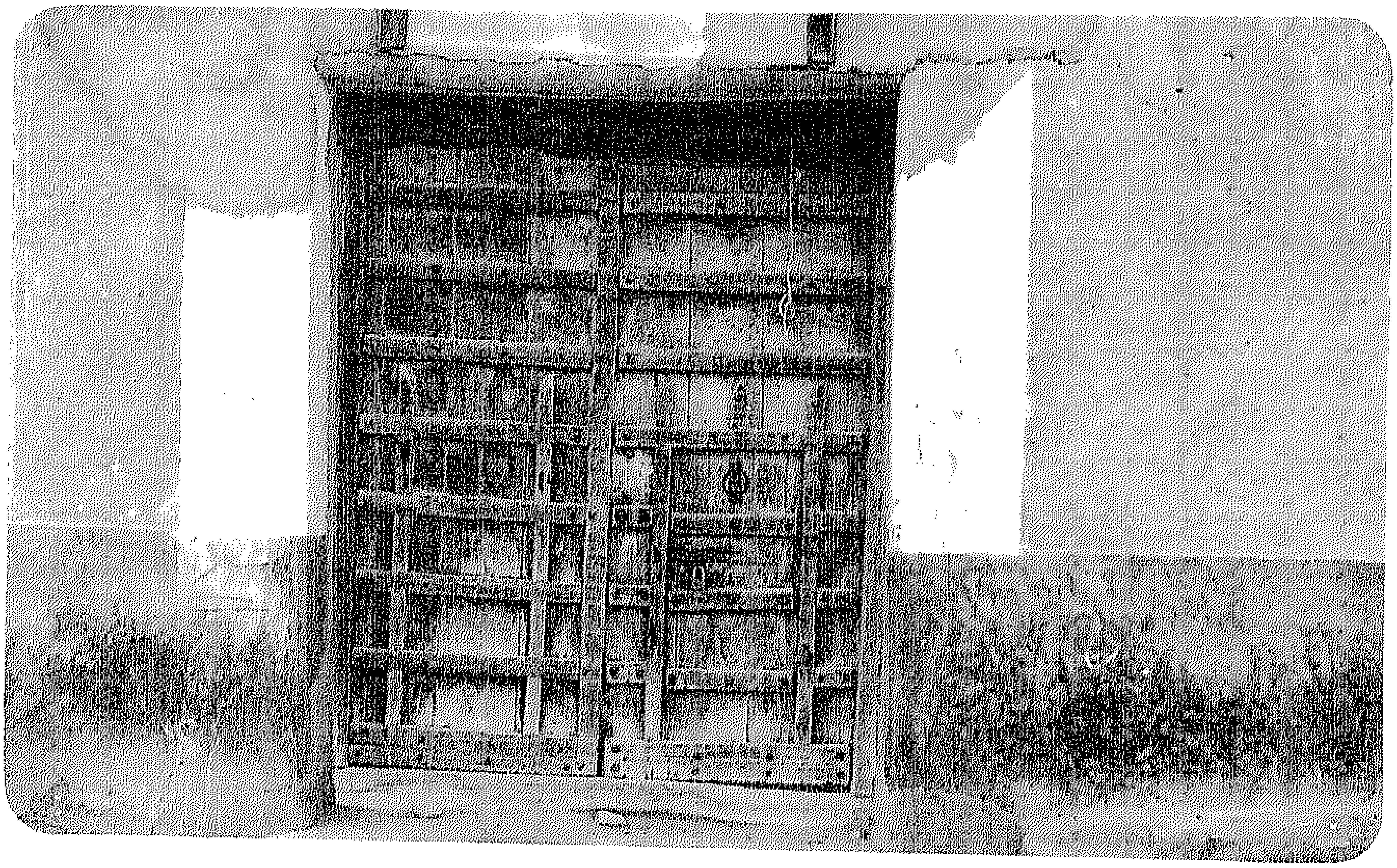

شكل رقم (٦)

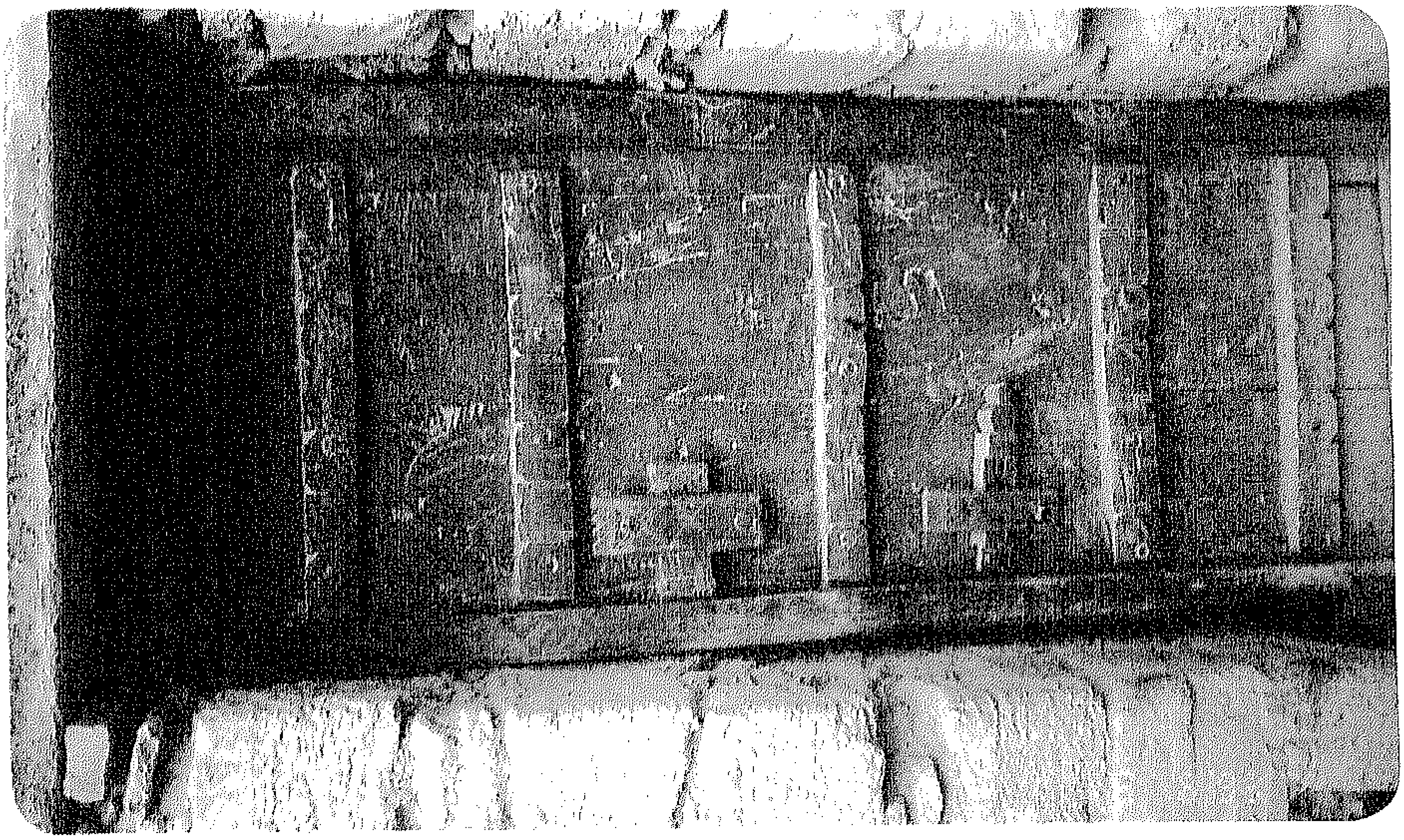

شكل رقم (٧)

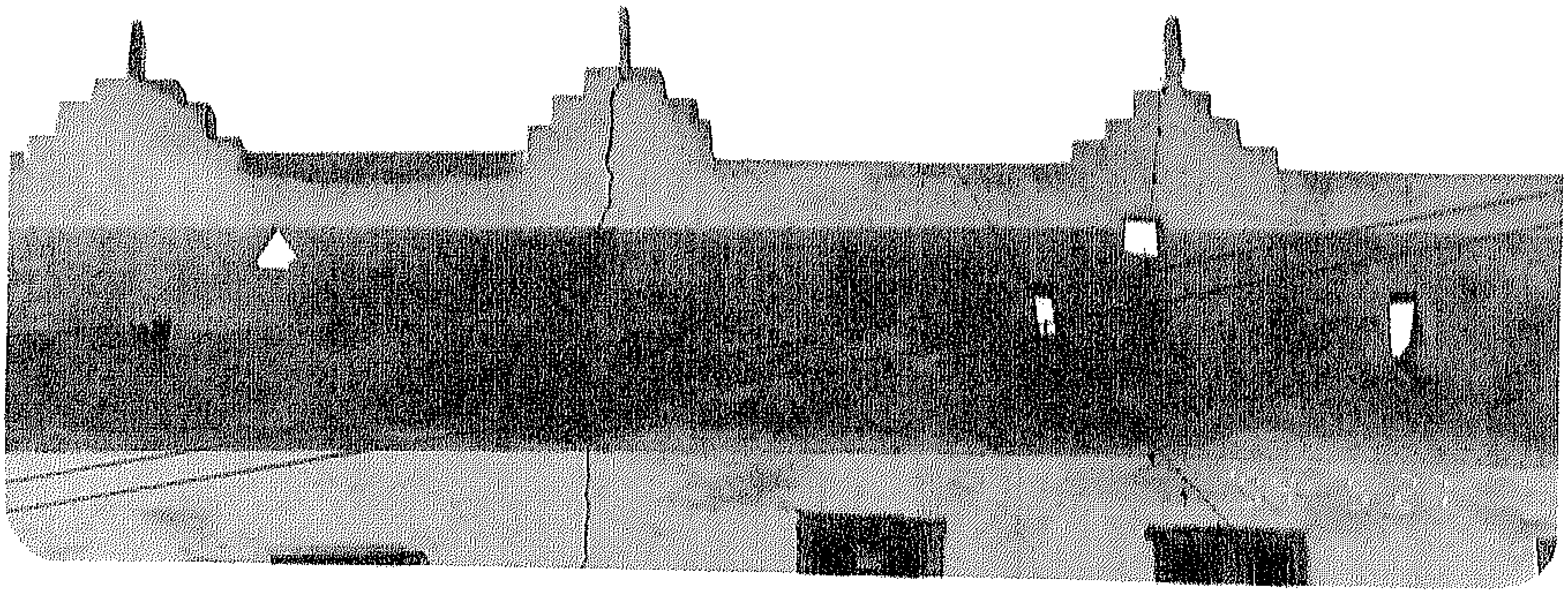

شكل رقم (٨)

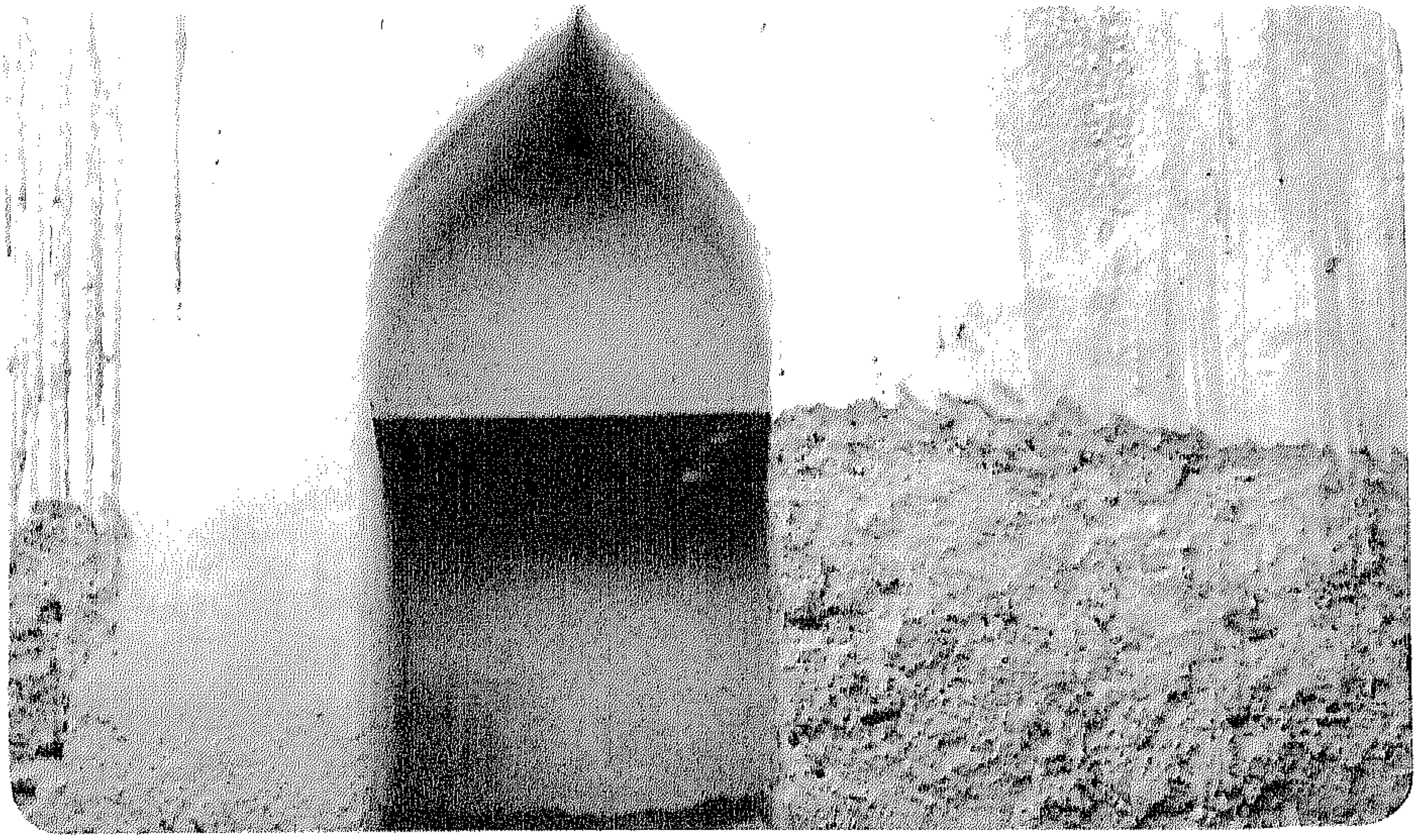

شـكل رقم (٩)

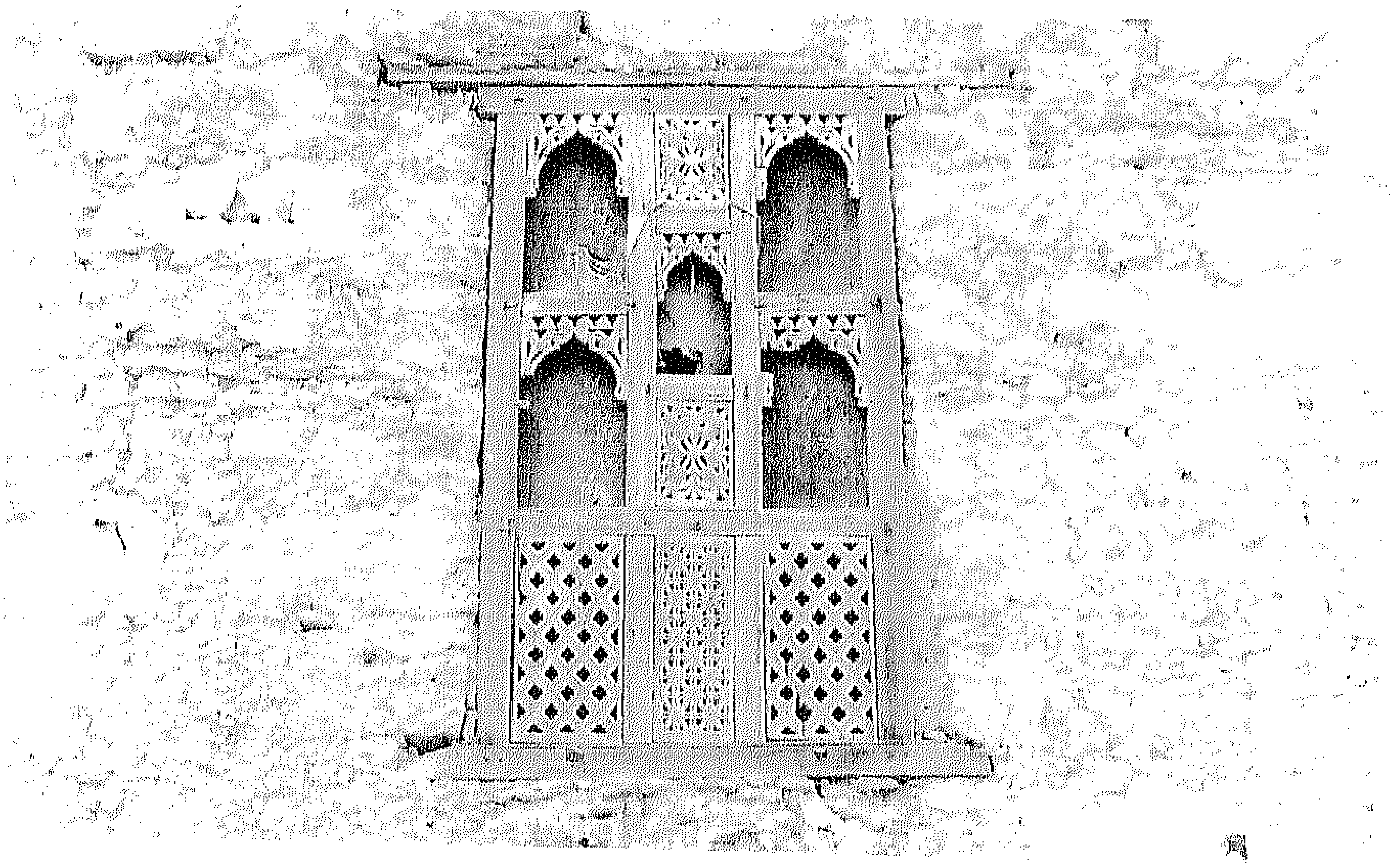

شكل رقم (١/١٠)

شكل رقم (٢/١٠)

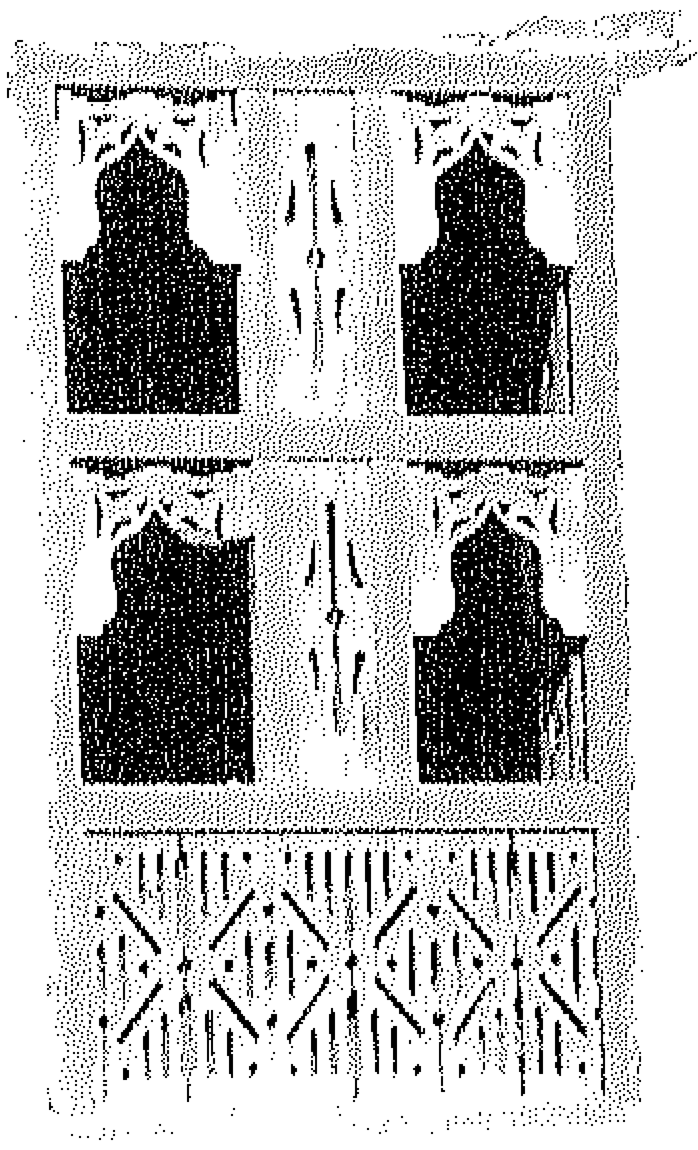

شكل رقم (٣/١٠)

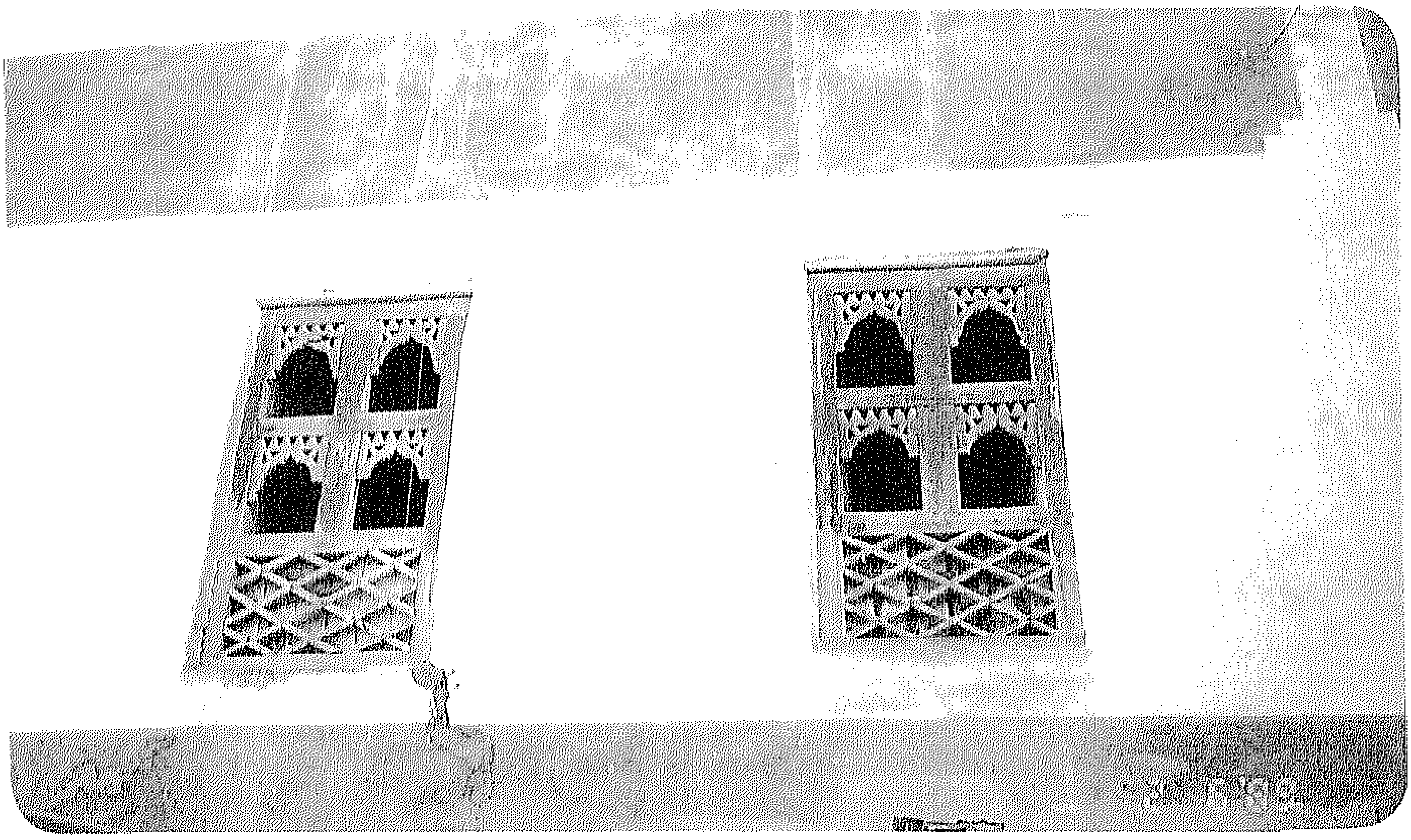

شكل رقم (١٠/٤)

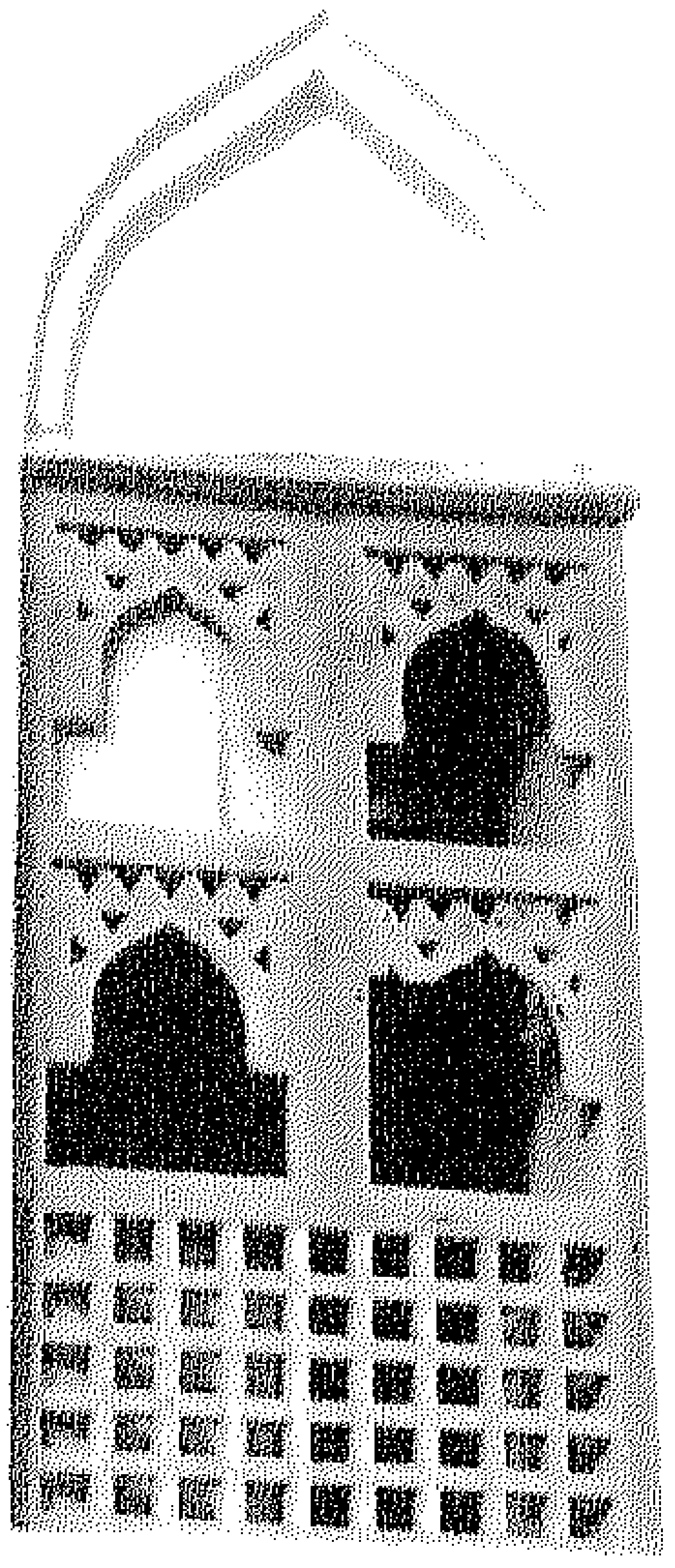

شكل رقم (١٠/٥)

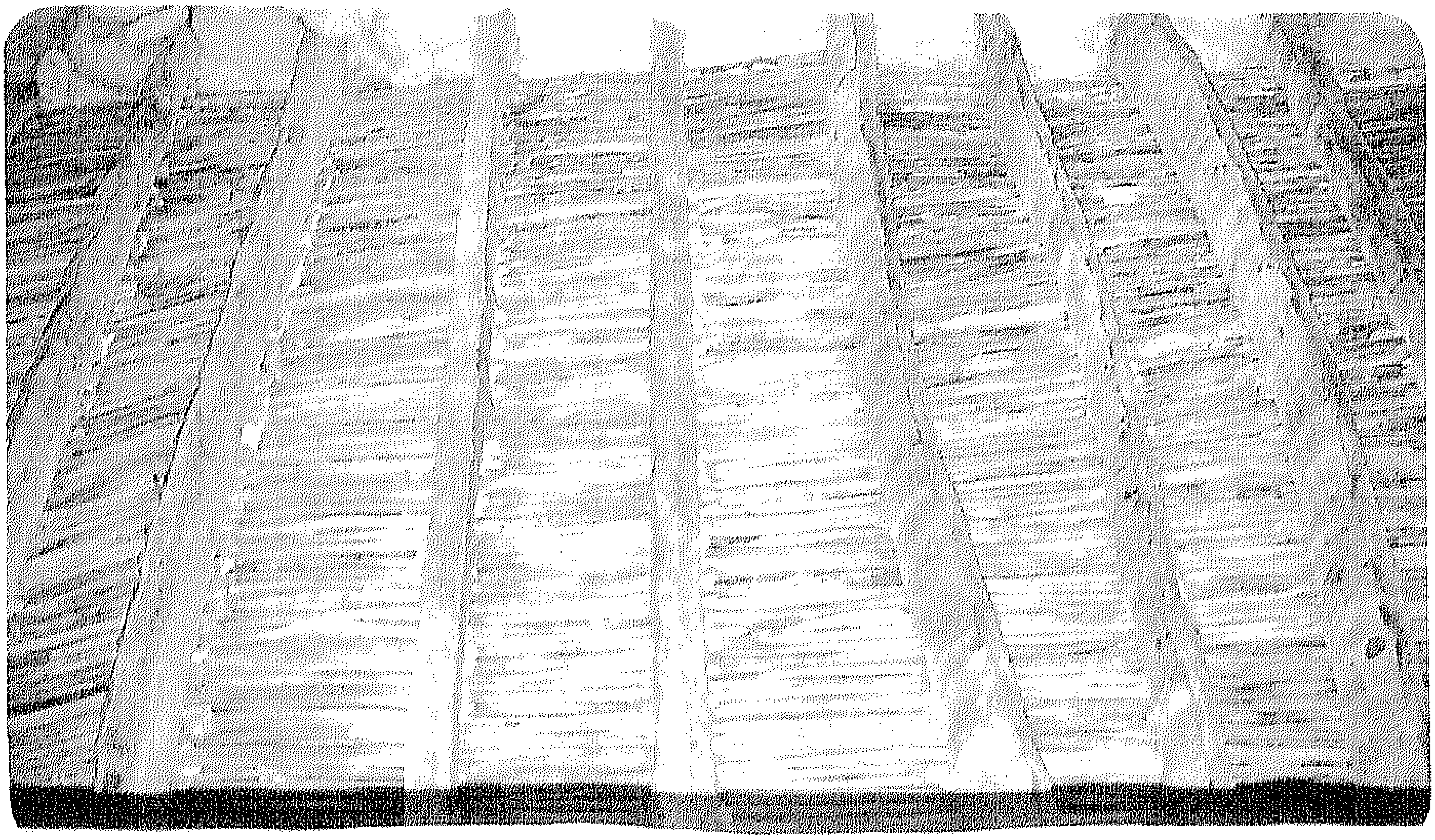

شكل رقم (١١)

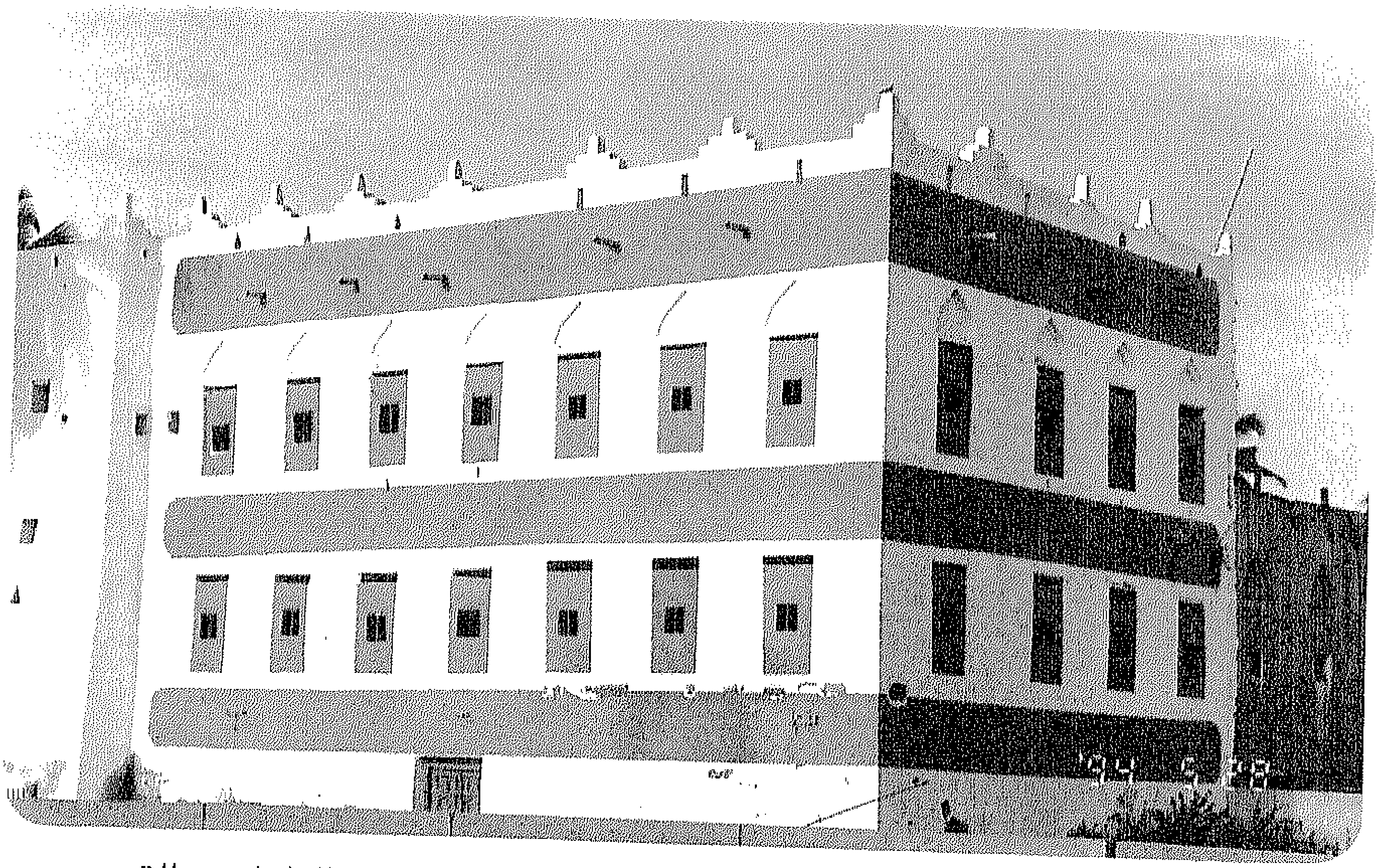

جماليات التناسق اللونى تبدو في طلاء واجهة هذا البيت الظفارى القديم.

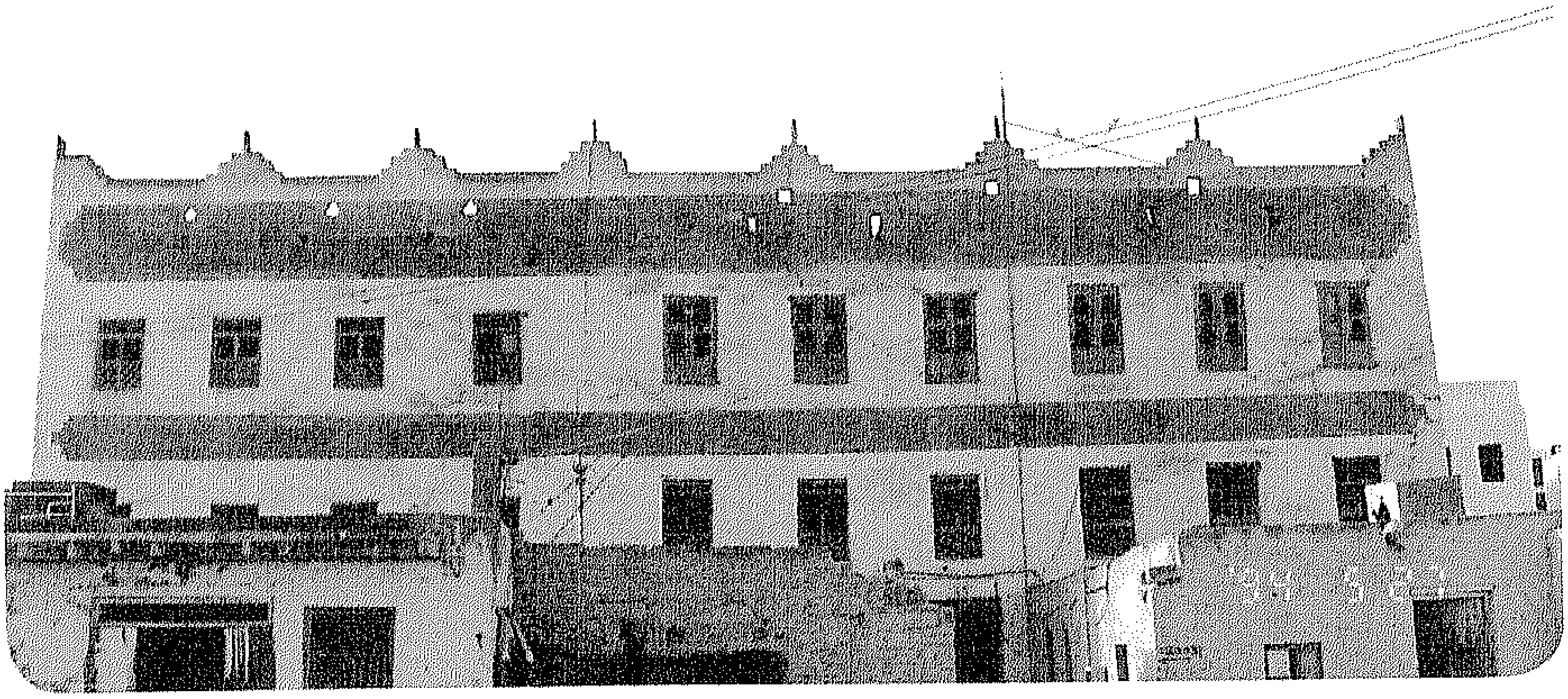

الحفاظ على البيوت القديمة ملمح هام من ملامح الاهتمام بتراثنا.

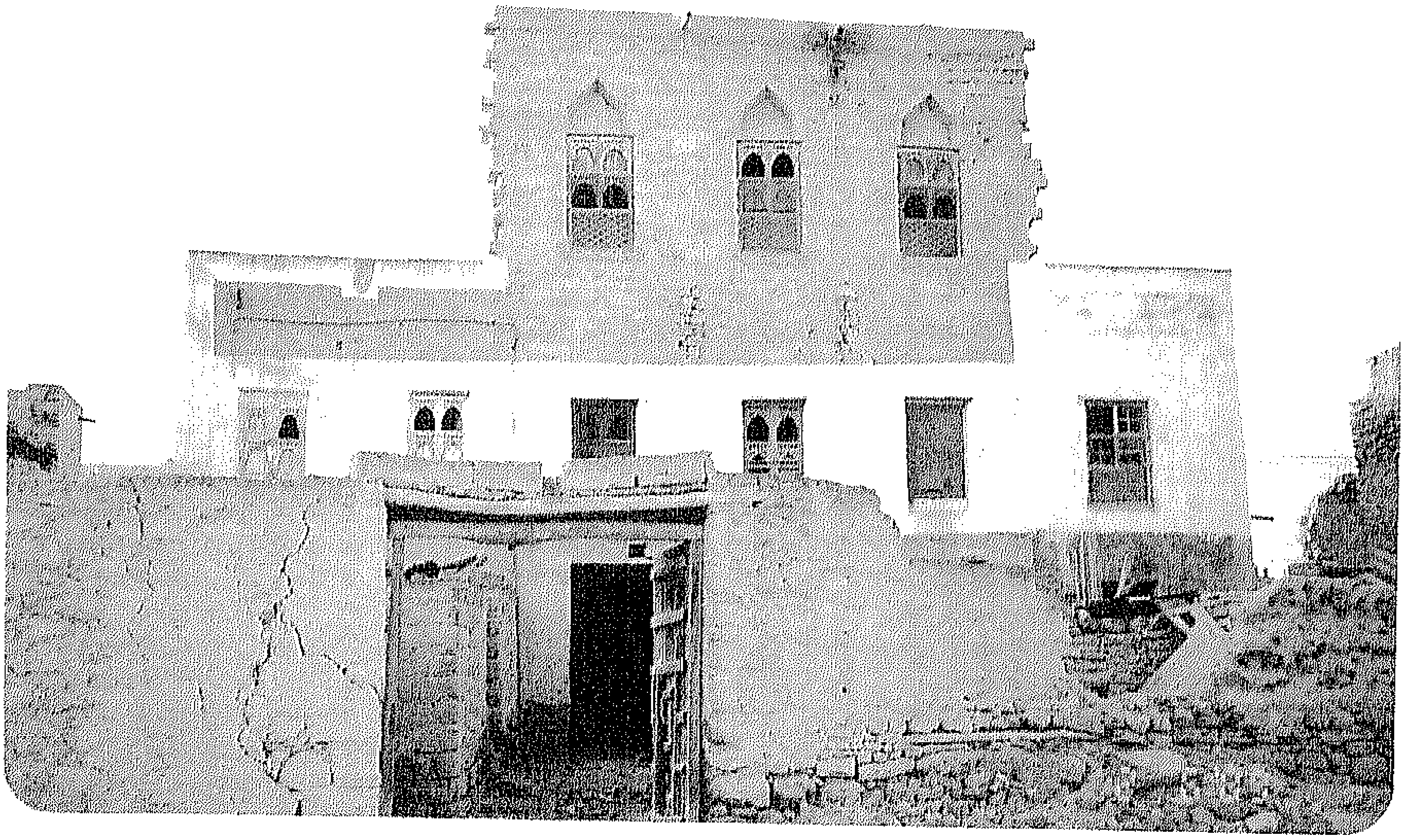

يد الانقاذ يجب أن تمتد عاجلاً لحماية البيوت القديمة من الإندثار.

الفهرس

١) اهداء ٣
٢) مقدمة ٥
٣) مدخل ٩
٤) بعض سمات المدينة الإسلامية ١١
٥) بعض سمات البيت الإسلامي ١٣
٦) سمات عامة للبيت القديم في ظفار ١٤
٧) تقسيم البيت الضفاري ومرافقه الخارجيه ٢٣
٨) عدد الادوار وتقسيماتها واستخداماتها ٢٧
٩) المواد المستخدمة في البناء ٣١
١٠) خاتمة ٣٣
١١) المراجع ٣٧
١٢) ملحق الصور ٣٩

رقـم الإيـداع

٩٤/٢

المطابع العالمية ـ روي ـ سلطنة عمان
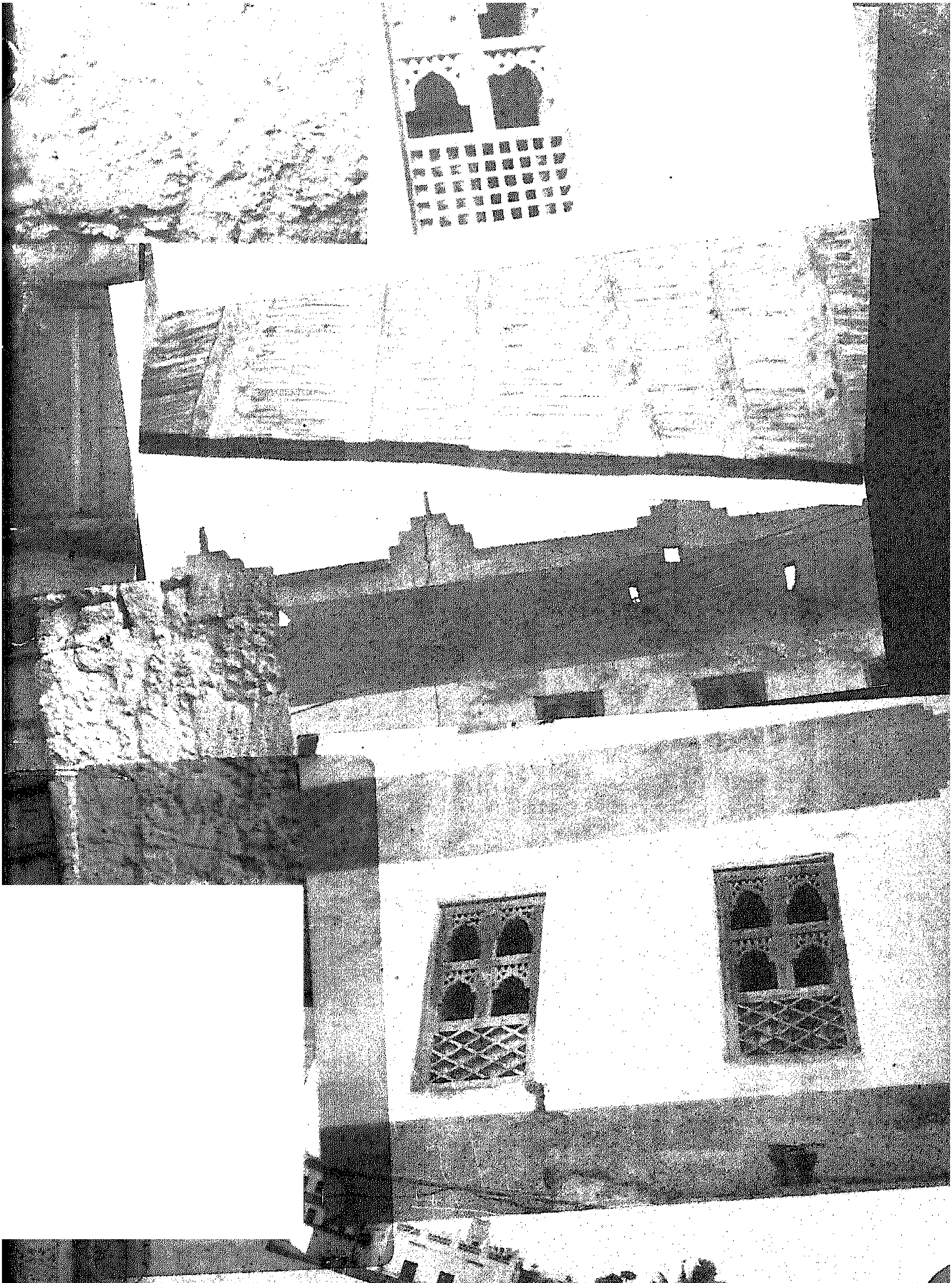
المطابع العالمية ـ روي ـ سلطنة عمان